تيمة الاغتراب في شعر السيّاب –قصيدة غريب على الخليج أنموذجا– مقاربة موضوعاتية

Theme of Alienation in Al-Sayyab's Poetry - A Gharib poem on the Gulf as a model - a thematic approach

بنابي نسيمة[1]*

جامعة وهران1– احمد بن بلة (الجزائر)، oumraid2015@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2022-05-15 تاريخ القبول: 2022-07-16 تاريخ النشر:2022-12-27

مُلخّص البحث

إنّ الظّروف والأزمات التي عاشها الإنسان العربي والتي جعلته يعيش دائما في جو مليء بالقلق والخوف والتوتّر ينتابه إحساس بالعجز فيجعله غير قادر على التأثير في المواقف المحيطة به، والتي غالبا ما تكون في يد السّلطة المستبدة، هذا ما قد يدفع الانسان إلى الانعزال حينا أو التمرّد والثّورة أحيانا أخرى، الأمر الذي قد يجلب له نقمة السّلطة وغضبها فلا يجد أمامه إلا الهروب وترك الوطن حلا ليقع بعد ذلك فريسة الحزن والأسى وهو المعلّق بين الهنا(الجسد) والهناك (الرّوح/ الوطن).

ولما كان الهارب قهرا هو الشّاعر المتميّز برهافة الإحساس وسرعة التأثّر، كان تعبيره عن هذا الألم نصوصا تطفح منها وتسيطر عليها تيمة الاغتراب الناتجة عن حنين وشوق للوطن لا يقاوم، وهو حال بدر شاكر السيّاب في قصيدته " غريب على الخليج" التي نسعى إلى دراستها من أجل الوقوف على تمظهرات تيمة الاغتراب فيها، متوسّلين في ذلك ببعض الأدوات الإجرائية للمقاربة الموضوعاتية.

كلمات مفتاحية: الاغتراب، تيمة، الموضوعاتية، غريب على الخليج، السيّاب.

Abstract:

The conditions into which one could be trapped into are of key importance. Man in general is the fruit of his society, culture and history, and the Arab man in particular has always been heavily influenced by social circumstances. Fear and anxiety have always been placed at the heart of the Arab Man's life and challenge. Being surrounded by such a mess, Man would certainly become unable to have

* **المؤلف المرسل: بنابي نسيمة**

control over what surrounds him. Moreover, this reality fosters in man a sense of isolation at times and rebellion at other times, for he is left with no option but to escape this awful reality. In so doing, he becomes caught between two sides and results in his being alienated. In order to better escape his reality, the poet does not only picture for us his anguish, more than this, he transforms his ordeal and state of being into written words. In light of this, the poet BadrShakir Al Sayyab can be a good case in point in which the theme of alienation not only runs through but also marks his body of poetry namely his renowned poem entitled "*A Stranger in the Gulf"* . The present study takes as its primary concern to profoundly examine the theme of alienation in BadrShakir Al Sayyab's poem *A Stranger in the Gulf* thematically.

Key Words: Alienation; Theme; Thematic; A Stranger in the Gulf; Al Sayyab.

1. مقدمة:

الانسان كائن اجتماعي، يؤثّر ويتأثّر، يأتلف ويختلف مع غيره وهي الوضعية الطبيعية في الحياة، ولكن هذه الوضعية قد تتغيّر بفعل عوامل وظروف مختلفة لا يستطيع الإنسان التعايش والتأقلم معا وهنا يبدأ شعوره بالضّياع ومحاولته للتغيير من أجل تحقيق أحلامه، هذه المحاولات التي تبوء غالبا بالفشل وتمنحه شعورا بأنه منفصل عن مجتمعه وأحيانا حتى عن ذاته فيكون بذلك في دائرة الاغتراب.

فـ"الاغتراب هو وعي الفرد بالفراغ القائم بين ذاته والبيئة المحيطة به، والمحيطة له بصورة تتجسّد في الشّعور بعدم الانتماء وتزايد القلق (السّويدي،1997: ص12)، هذا الاغتراب الذي يتجلّى ويزداد حدّة كلّما أحسّ الانسان بعدم الانتماء فينحوا بذلك إلى التخلّي والتجرّد. ونحن هنا لا ندّعي حداثة المصطلح بل نقرّ بقدمه، إنّما الجديد هو اكتساب المفهوم حق الوجود الفكري ابتداء من أواخر القرن الثامن عشر ضمن دراسات فلسفية عميقة.

ولقد كان للفلاسفة العرب شأن في التعامل مع هذا المفهوم ومن بين هؤلاء: ابن باجة أبو بكر محمّد بن يحي بن الصّائغ الذي كانت حياته غاصة بالقلق والحيرة والمشاعر الجارفة الدّالة على الاغتراب، إذ يقول:

قَد طُفتُ في تِلكَ المَعاهِدِ كُلِّها وَسيَّرْتُ طَرفي بَينَ تِلكَ المَعالِمِ

فَلَم أَرَ إِلّا واضِعاً كَفَّ حَيرَة عَلى ذَقَنٍ أَو قارِعاً سِنَّ نادِمِ (الفيّومي، 1988: ص91).

وقد نشأ اغترابه نتيجة شعوره بالضّياع والخضوع لسلطة استبدادية تفرض عليه الطّاعة العمياء وتعزله عن سلطان العقل، أي تجبره على الخضوع لسلطان القبول في كلّ ما تقرّه بمعزل عن العقل، وبذلك يصبح إنسانا جامدا بلا روح لأنّه حيل بينه وبين تحقيق وجوده الأصيل.
ومن المؤسف أنّنا نجد هذه الأحداث والحالات تتشابه في مختلف الأزمنة والأمكنة، فصراع الإنسان مع السلطة الجائرة لا يتوقّف وهو تماما حال الشّاعر بدر شاكر السيّاب، فإذا ما اطّلعنا على الأوضاع الاجتماعية التي عاش فيها نجده قد عاصر في شبابه مرحلة سيّئة من تاريخ وطنه المثقل بسلبيات الاحتلال الإنجليزي والحكومات شبه العميلة، وما صاحب ذلك من انحطاط اجتماعي واختلال في العلاقات الإنسانية، ممّا ولّد عنده وعيا بأن تكون الكلمة لديه معبرا للدّفاع عن وطنه وشعبه، لذلك قاومه الحكّام فلم يجد وسيلة إلاّ الهروب إلى الكوّيت، أين كتب قصيدته غريب على الخليج –موضوع الدّراسة–بعد فشل الانتفاضة التي شارك فيها مواطنا وشاعرا، كتبها وهو يعاني التشرّد والألم والفقر والمرض، بعيدا عن دياره وأهله وأحبابه فكان من الطبيعي أن تأتي محمّلة بمشاعر القهر والأسى والاغتراب، لكن وبالرّغم من هذه الغربة المادية إلاّ أنّ روحه ظلّت تحوم حول الوطن ونفسه مؤرّقة بهمومه، ف"الوجود في المنفى يعني الانقطاع عن الوجود الفعلي في الوطن كما يعني في الوقت نفسه تمدّدا داخليا لهذا الوجود ذاته، وحين يصبح وجود الوطن داخليا تنشط حركة الخيال وتظهر مستويات متعدّدة للحلم والذّاكرة (اعتدال عثمان، 1989: ص7)

حلم بالوطن والعودة إليه هروبا من المشاعر السلبية والظّروف المأساوية التي يعيشها الشاعر والتي تزيد من شعوره بالاغتراب.

من أجل تتبّع هذه الظاهرة في شعر السيّاب اخترنا قصيدة " غريب على الخليج" متوسّلين بالمنهج الموضوعاتي الذي رأينا أنّه المناسب لطبيعة الدّراسة، ولكن قبل ذلك ارتأينا تقديم لمحة بسيطة جدا عن المقاربة الموضوعاتية.

2. المقاربة الموضوعاتية:

ظهرت المقاربة الموضوعاتية في ستينيات القرن العشرين في أوروبا فوجدت إقبالا من النقّاد العرب على غرار المقاربات النقدية المعاصرة، وتعاملت هذه المقاربة مع النص الأدبي شعرا ونثرا وذلك باستقراء التيمات الأساسية في النص مع تحديد دلالتها المتواترة انطلاقا من العنوان.

فالموضوعاتية إذا هي البحث عن التردّد المستمر لفكرة أو صورة ما، فيما يشبه لازمة أساسية وجوهرية تحدّد بشكل "مبدأ تنظيمي محسوس أو ديناميكية داخلية أو شيء ثابت، يسمح للعالم المصغّر بالتشكّل والامتداد (Jean pierre, 1961 :p24).

وهكذا تتحدّدُ الموضوعاتية عبر تمفصلها في قنوات، بأنّها تفجير لمكبوت النص الأدبي بحثا عن الموضوع وذلك من خلال قراءة موضوعاتية (lecture thématique)، توصف بأنّها "قراءة ليست تأويلية ولا تفسيرية، ولكنّها وصف شامل يمكن تسميته بالجرد والتنضيد، والنقد الموضوعاتي نقد للمدلول أو لنقل إنه نقد مقولاتي يقوم على سبر السجلاّت الأساسية، حيث ينتشر المعنى في كل عالم أدبي خاص، ووضع هذه السجلاّت مع بعضها موضع التجانس ,Jean Pierre (1954-1970: p10)

إنّ هذه السجلاّت هي نقاط التقاء القارئ بالنص، والتي يبدأ عندها التواصل بينهما ويبدأ معها بحث القارئ عن التيمة المهيمنة التي تعرّف بأنّها " الفكرة المتكرّرة في عمل أدبي ما، ولعلّها الحافز كثير التّواتر، لكنّ التيمة أكثر تجريدا وعمومية، وفي العالم الرّوائي (تيمات) أساسية كثيرة لها

دلالاتها البعيدة (سعيد يقطين، ص232)، والتي تحتاج من القارئ التحكم بالأدوات الإجرائية للمنهج الموضوعاتي من أجل الوصول إليها.

تجدر الإشارة هنا أنّ التيمة (thème) قد ترجمت بمصطلحات عديدة منها: الغرض مثل ما نجده عند النّاقد والمترجم إبراهيم الخطيب (سعيد علّوش، 1989: ص148) إلاّ أنّنا اخترنا استعمال المصطلح المعرّب (تيمة) من أجل تفادي الخلط مع مفاهيم ومصطلحات أخرى.

والآن سنحاول من خلال هذا المقال الوقوف على تيمة الاغتراب كفكرة مهيمنة في قصيدة السيّاب وإبراز الطريقة التي اتّبعها في التعبير عن هذه الظاهرة وذلك بالاستعانة ببعض العناصر الإجرائية للمقاربة الموضوعاتية في مقدّمتها العنوان.

3. العنوان وتيمة الاغتراب:

إنّ القارئ للنص وفق المنهج الموضوعاتي يملك حرّية الولوج إليه من أي باب على اعتبار أنّ "القراءة الموضوعاتية من حيث المبدأ، قراءة حرّة المدخل (عبد الكريم حسن، 1983:ص 38) والموقع الذي يختاره القارئ الموضوعاتي لدخول النص، هو موقع اختاره هو، وبالتالي فهو موقع غير إلزامي لغيره، ومن هنا فإنّ كلّ قارئ يختار المدخل الذي يشعره بالرّاحة، والذي يُخوّل له أن يصل إلى موضوع النص، على اعتبار أنّه "لا وجود في القراءة الموضوعاتية لنقطة البدء ونقطة الوصول، فالمدخل إلى حقل القراءة الموضوعاتية مدخل حر ممّا يُضفي عليها شيئاً من السحر، وعندما يكتب أحد النقاد الموضوعاتيين في مقدمة دراسته أنه سيبدأ من نقطة ما، فإنّ هذه البداية ستكون بداية كتابته هو لا بداية يلزمه بها منطق حقيقي للموضوع المدروس (عبد الكريم حسن، ص 185–186)

والنقد الموضوعاتي يجعل من العنوان أحد أدوات التصنيف الموضوعاتي لتيمات النص، وهي تعتبر عتبة أولى من أجل وضع توزيع موضوعاتي، قد يستقرّ عليه القارئ، وقد يتغيّر مع تقدّم مراحل القراءة والتّحليل، إلاّ أن فائدتها تنبع من كونها عتبة يطأ منها النّاقد والقارئ المتن المدروس، تماما كما هو العنوان عتبة يمنح إمكانية الدخول، إذ أنّه هو الذي يوجّه قراءة النص، ويغتني بدوره بمعانٍ

جديدة بمقدار ما تتوضّح دلالات هذا الأخير، علاوة على مدى أهميته في استخلاص البنية الدّلالية للنص وتحديد تيماته.

ولا شكّ أنّ الاهتمام بالعنوان لم يأت اعتباطا ودون مبرّر وإنّما انطلاقا من الأهمّية التي يحظى بها هذا الأخير، وذلك لكونه علامة سيميوطيقية تنفتح على دلالات شتّى، فكرية كانت أم أدبية، فهذه الجملة المفتاح ماهي إلاّ "مرآة مصغّرة لكلّ ذلك النّسيج النصّي(شعيب حليفي،1992: ص84-85)، فهو مكوّن لغوي يضمن انسجام علامات النص وفق حقول دلالية وفكرية تتوالد وتتناسل فيه بشكل لا نهائي، ومن ناحية أخرى تعمل على إعادة إنتاج دلالات النص وفق المحاور الفكرية التي تتمتّع بها نسقية العنوان، بمعنى آخر أنّ هذه النّسقية الفكرية للعنوان تمنح إضاءة من نوع خاص، حيث تضمن للقارئ تأويل النص وفق وظائفه الإيحائية المختلفة وتجعله يسير تبعا لمقصدية أو إرادة العنوان الناتجة ودون شك عن إرادة المبدع صاحب النص.

إذا فأساس الأهمّية الموضوعاتية للعنوان هي كونه ناتج عن وعي الكاتب أو الشاعر، بعكس النص الذي يكون نتاج اللاّوعي ممّا يجعل تحديد موضوعاته الرّئيسية صعب نوعا ما، بينما قد يكون العنوان أقرب إلى الفكرة الرّئيسية على اعتبار أنّه كان نتاجا لفعل الوعي.

من هذا المنطلق ارتأينا أن يكون مدخلنا إلى قصيدة "غريب على الخليج" من أجل تقصّي التيمة الطاغية هو عنوانها الذي لاحظنا أنّه ذو دلالة مركزية بالنّسبة لها، إذ يعدّ حجر الزّاوية في البناء الفنّي للقصيدة وهو بمثابة المعنى الكلّي أو المحور الرّئيسي الذي تدور حوله كلّ الدّلالات الأخرى سواء المباشرة أو المولّدة، ومن "يتأمّل قصيدة السيّاب غريب على الخليج يجد أنّ العنوان يضع بين يدي المتأمّل على مصادر الخيال عنده، والتي تبدو كما لو كانت نتيجة منطقية لمضمونها، إذ يدور الخيال –في مجمله– حول ما يشير إليه العنوان من معاني الغربة، والميّاه، والخليج، والمقطع الأوّل من القصيدة يعبّر عن صدق هذه المقولة(طه وادي، جماليات ، 2000: ص21).

إنّ العنوان هنا يشي منذ الوهلة الأولى بأنّ التيمة المهيمنة على القصيدة هي تيمة الاغتراب فهو ذو بنية تركيبية بحيث جاء جملة اسمية تفيد الثّبات والاستقرار، مكوّنة من خبر لمبتدأ محذوف تقديره (أنا غريب) وما بعده (على الخليج) شبه جملة متعلّقة بالخبر ومفسّرة له.

ويمكن أن نعلّل حذف المبتدأ في البنية السطحية برغبة الشّاعر في الإسراع بنقل خبر اغترابه للقارئ نظرا لاستقرار تفكيره عليه، والبوح بما يعتريه من مشاعر تتعلّق بهذا الموضوع، كما لا نهمل أنّ طبيعة العنوان تستدعي التلخيص والايجاز.

ثمّ إنّ العنوان جاء نكرة والنّكرة هنا تخصّ الغريب ولا تخصّ الخليج، فلفظة الغريب هنا تعمّق دلالة الغربة عند الشّاعر، إذ ورغم أنّ الغربة تحمل معنى الضّياع والتشرّد والنّفي، إلاّ أنّه أبى أن يجعلها نكرة حتّى تعلو هناك معاني ودلالات تفيد الإغراق في الضّياع.

إنّ هذه الاستعمالات لم تأت عبثا، وإنّما جاءت لتشيع جوا حزينا متجذّرا في أعماق هذا الغريب الجالس على صخرة الخليج، فنكاد لا نرى أيّ إشعاع نور في سمائه، ولا إطلالة قمر في ليله، فنعيش التّجربة مع الشّاعر ونتجرّع مرارتها وإذا بالغربة كلّها ليل وظلام وأسى.

إنّ العنوان في هذه القصيدة ذو أبعاد تستغرق كلّ جزئياته، ليكون بذلك تلك البؤرة التي تنطلق منها كلّ الدّلالات في مسيرة تعتمد وتؤكّد وتدعم جملة العنوان، إذ أنّ هذه الدّلالات تنطلق من العنوان لتعود إليه، فهل ستتحقّق دلالات العنوان على مستوى نصّه؟

هذا ما سنحاول الوصول إليه من خلال العنصرين المواليين.

4. تيمة الاغتراب ونظام الأفعال في القصيدة:

إن الإحصاء هو الوسيلة العلمية القادرة على منح النص الأدبي لساناً آخر، يفصح بلغة رياضية عن مكنوناته، ويسقط كثيراً من الحجب الكثيفة عن أسراره، ويرحل به إلى جزيرة البوح العاري المكشوف، وهذه العملية تهتم بالمعمار الخارجي للعمل الفني، وتحصي الوحدات المعجمية التي تعامل معها الكاتب، وتتساوى هذه الوحدات، فليس لإحداها الفضل على الآخر، ولا يعطيها قوّة التميّز إلا هيمنتها داخل النص، عن طريق الظّهور المتكرّر الذي يغني قوّتها التواترية في جدول الظّهورات.

وقد تبيّن من خلال إحصائنا للأفعال الواردة في المقطع الأوّل من القصيدة وهي سبع وثمانون فعلا (87 فعل)، أنّ الأفعال الواردة بصيغة المضارع خمس وستّون فعلا (65 فعل)، أكبر من الأفعال الواردة بصيغة الماضي اثنين وعشرون فعلا (22فعل)، وهذا يدلّ على حركية القصيدة من

جهة، كما أنّ طغيان الأفعال المضارعة يدلّ على انفتاح الشّاعر على المستقبل، بمعنى أنّه يحتفظ بأمل في المستقبل.

ولكن تأمّلا أكثر في هذه الأفعال يجعلنا نقول أنّ هذه الأفعال ورغم أنّها تدلّ على أمل في المستقبل إلاّ أنّ هذا الأمل كان ممزوجا بأحاسيس الضياع والتشتّت، فهي في معظمها تحمل معاني قاسية ومؤلمة مثل: تلهث، يسرّح البصر، يصعد من نشيج، يهدر، تصرخ، يعول، يجرّ...

كما أنّ جلّ الأفعال الواردة في هذه القصيدة تتشكّل وحداتها من حروف مجهورة مثل: تلهث، تطوي، تنشر، ادلهمّ، يعول، تصرخ...وتواتر الأصوات المجهورة تلميح إلى رغبة شخصية الرّاوي في النصّ (السيّاب) في الجهر بما أصابه من هذا المنفى، وذلك لينفّس قليلا من كمده، وقد جعل في الأصوات المجهورة مرتكزا يحافظ به على التدفّق الانفعالي الذي يعيشه السيّاب، وهو انفعال حارق وجارف في آن واحد.

فمثلا نجد من بين الأفعال المستعملة: يهدّ أعمدة الضياء، يصعّد من نشيج، يهدر رغوة، صوت تفجّر، الرّيح تصرخ فكلّ هذه الأفعال تخفي وراءها ثورة عارمة ونقمة صارخة يجتهد الشّاعر في معالجتها لأنّه في بلد غريب ممّا يجبره على إعادة هذه الثّورة إلى قرارة نفسه الثّكلى الجريحة، وهذا ما يؤكّده المقطع الأخير الذي يطغى فيه حرف السّين والذي يوحي بأنّ الشّاعر أضحى يهمس لنفسه، هاته النّفس القلقة المحترقة داخليا.

5. الألفاظ وتمفصلات تيمة الاغتراب:

القصيدة ذات لوحة فنّية متعدّدة، إذ أنّ الشاعر يبتدئ برسم فنّي كوني لملابسات المكان، بعدها ينفجر في مدّ تصاعدي، في صوت يشبه النّحيب وهو يناجي "عراق"، وعراق هنا هي الوطن البعيد الذي يقع وراء المحيط والذي يشكّل حرقة ولوعة في القلب، لهذا نلاحظ أنّ تردّد هذه اللّفظة كان أربع عشرة مرّة على مدار مقاطع القصيدة وهو ما يجعلنا نتساءل لماذا لم يعنون الشّاعر قصيدته "عراق" بدلا من "غريب على الخليج"، فالعراق بالنّسبة إليه ليست سوى المعادل الموضوعي لمشاعره وإحساسه المؤلم بالاغتراب في أيّ مكان عداها.

كما أنّنا نعلم أنّه كان في الكويت –كما سبق الذّكر–ولم يكن في لندن أو باريس، أي أنّه كان في بلد عربي شقيق، بالإضافة إلى أنّه بلد قريب من العراق جغرافيا، ولكن رغم ذلك فإن هذه العوامل لم تخفّف من شعور المنفى والاغتراب.

ولأنّ الشّاعر هو الكائن الأكثر تمرّدا في المجتمع، والأكثر تحرّرا فعليه دائما أن يدفع ثمن ذلك دما ودموعا ومعاناة وغربة وضياعا، كما أنّ وجوده في الغربة يستدعي دائما انهيال الذّكريات السّعيدة عليه، ولذلك نلاحظ أنّ الحديث عن ذكرياته في القصيدة يستغرق أربعة وعشرون سطرا، وهذا يدلّ على الإمعان في تعميق جوّ معاناته في هذه الغربة الأليمة وافتقاده لحسّ المكان الذي يعتبر حسا عميقا وأصيلا "في الوجدان البشري، وخصوصا إذا كان هذا المكان هو وطن الألفة والانتماء الذي يمثّل حالة الارتباط المشيمي برحم الأرض – الأم، ويرتبط بهناءة الطّفولة وصبابات الصّبا.

ويزداد هذا الحسّ شحذا إذا ما تعرّض المكان للفقد أو الضّياع وأكثر ما يشحذ هذا الحس هو الكتابة عن الوطن في المنفى (اعتدال عثمان، ص8).

لقد وضع بدر شاكر السيّاب –في هذه القصيدة–يده على المشكل الحقيقي في حياته وحياة العربي عموما، إنّه الاغتراب والمنفى، ولهذا نلاحظ أنّه قد وشّح قصيدته بألفاظ تدعّم الدّلالة المركزية (الاغتراب)، فنجد من المعاني التي تبرز تيمة الاغتراب: جلس الغريب، نشيج، ضجيج، أبعد ما يكون، البلد الغريب، في المنفى، يقول:

"جلس الغريب يسرّح البصر المحيّر في الخليج

ويهدّ أعمدة الضيّاء بما يصعّد من نشيج

.....

البحر أوسع ما يكون وأنت أبعد ما يكون (بدر شاكر السيّاب، ص317)

إنّ الحيرة تكتنف وتستولي على لبّ الشاعر وهو الغريب البعيد عن أهله ووطنه، وهذا ما جعله يجلس مقابلا للخليج مُطلقا العنان لبصره الذي لا يركّز على شيء محدّد، وكأنّه ساهم في الفراغ الذي يقابله والذي لا يستمع فيه إلاّ لصوت متكرّر يهدم كلّ شيء ويحيل الضيّاء إلى ظلام.

كما أنّ الشّاعر يشبّه الصّوت المتصاعد بالمدّ، والسّحابة، والدّموع وهي كلّها ألفاظ تحمل معاني الماء الذي يرمز إلى الحياة والخصوبة والاستمرار والازدهار، ولكنّها صفات فقدها وافتقدها الشّاعر في غربته ومنفاه، هذا المنفى الذي يجعل من كلّ مظاهر الطّبيعة تصرخ به لتُسمعه كلمة واحدة ووحيدة: عراق.

"صوت تفجّر في قرارة نفسي الثّكلى: عراق

كالمدّ يصعد كالسّحابة كالدّموع إلى العيون

الرّيح تصرخ بي عراق

والموج يعول بي: عراق، عراق، ليس سوى عراق! (بدر شاكر السيّاب، ص317، 318)

بالإضافة إلى ذلك أراد السيّاب أن يحيطنا بجو مسائي ليلي، فأثناء قراءتنا للقصيدة نلاحظ هذا الاستعمال المفرط للظّلام، وكلّ ما يدخل في حقله الدّلالي مثلا: وجه أمّي في الظّلام، أدلهمّ مع الغروب، القصص الحزين، أتى المساء، اللّيل أطبق دجاه من الظّلام، والظّلام، حتى الظّلام، متى أنام؟

"هي وجه أمّي في الظّلام

وصوتها يتزلّقان مع الرّؤى حتّى أنام

وهي النخيل أخاف منه إذا ادلهّم مع الغروب

فاكتظّ بالأشباح تخطف كلّ طفل لا يؤوب

من الدّروب (بدر شاكر السيّاب، ص318، 320)

ويقول:

"الشّمس أجمل في بلادي من سواها، والظّلام

حتى الظلام هناك أجمل فهو يحتضن العراق (بدر شاكر السيّاب، ص:320)

ثمّ إنّ الشّاعر يبرز مدى اشتياقه للعراق وسأمه من هذه الغربة، ومدى اشتياقه لحبيبته، ولكنّه على الرّغم من اشتياقه لن يفرح حين يلقاها إلاّ إذا كان هذا اللّقاء على أرض الوطن، على أرض العراق.

وهذا ما يبيّن أنّ القصيدة عند السيّاب لم تعد تفصل بين الذّات والموضوع، أو بين الحب والوطن "فمن خلال انصهار الأنا ب "النّحن" واتّحاد الذات بالموضوع لا تعبّر التجربة عن واقعها المحلّي فحسب، بل تعبّر عن واقع إنساني عام، لأنّ الحب لا يصبح عالميا إلاّ إذا كان مخضّبا بسمّاق الواقع الخاص الذي يعبّر عنه".

"أحببت فيك عراق روحي أو حببتك أنت فيه

يا أنتما مصباح روحي أنتما وأتى المساء

واللّيل أطبق فلتشعّا في دجاه فلا أتيه

لو جئت في البلد الغريب إلى ما كمل اللّقاء

الملتقى بك والعراق على يديّ هو اللّقاء

شوق يخضّ دمّي إليه، كأنّ كلّ دمي اشتهاء،

جوع إليه... كجوع كلّ دم الغريق إلى الهواء (بدر شاكر السيّاب، ص320)

وتظهر تيمة الاغتراب أكثر في الأبيات التالية، حيث يرى الشاعر أنّ حياته في المنفى ليست حياة، وأنّ ولادته الحقيقية ستكون عند عودته إلى وطنه، إلى أرض العراق فهي التي تحدّد كيانه، إذ بها يكون ومن دونها يفنى ويموت.

"شوق الجنين إذا اشرأبّ من الظّلام إلى الولادة!

إنّي لأعجب كيف يمكن أن يخون الخائنون!

أيخون إنسان بلاده؟

إن خان معنى أن يكون، فكيف يمكن أن يكون؟ (بدر شاكر السيّاب، ص320)

فالشّاعر المعاصر عامة مثل النّبي الذي يحمل الرّسالة، وهي رسالة إنقاذ البشرية من الشّرور وقيادتها إلى حياة أفضل وأهنأ، ولكن الشّاعر مثله مثل النّبي يقابل بالرّفض والنّفي، ولهذا جاءت صورة المسيح أصدق تعبير عن هذه التّيمة، عن الألم والمعاناة المستمرّة التي يعانيها الشّاعر، فهو أينما يذهب يحمل رسالته التي هي سبب منفاه، وبذلك يبقى فعل الغربة متحققا فيه مادام مصرا على ثورته وتمرّده على تنظيمات المجتمع السّائدة، ومادام المجتمع مصرا على رفضه ونفيه ولهذا نجد الشّاعر يصرخ:

"واحسرتاه متى أنام

فأحسّ أنّ على الوسادة

من ليلك الصّيفي طلاّ فيه عطرك يا عراق؟

بين القرى المتهيّبات خطاي والمدن الغريبة.

غنّيت تربتك الحبيبة،

وحملتها فأنا المسيح يجرّ في المنفى صليبه (بدر شاكر السيّاب، ص321)

إنّ الشّاعر يستعمل في كتابته الفعل "يجرّ" وهو ما يبيّن أنّه أضحى مرهقا وفاقدا للقدرة على المواصلة، لقد ساءت حالته وأصبح ذليلا متسوّلا تنمّ هيئته وأسماله البالية عن الفقر والجوع والمرض وهي وضعية مؤلمة في كلّ الأحوال، ولكنّ ما يضاعف من قسوتها هو وجود الشّاعر في الغربة وإحساسه بالاغتراب.

"متخافق الأطمار أبسط بالسّؤال يدا نديّة

صفراء من ذلّ وحمّى: ذلّ شحّاذ غريب

بين العيون الأجنبية،

بين احتقار وانتهار وازورار أو خطية

والموت أهون من خطية

من ذلك الإشفاق تعصره العيون الأجنبية

قطرات ماء معدنية (بدر شاكر السيّاب، ص321)

إن ما يعمّق شعور الاغتراب لدى الشّاعر هو نظرات تلك العيون الغريبة، التي يرى في إشفاقها عليه مشاعر مصطنعة وفي بكائها دموعا تكاد تشبه المياه المعدنية التي تشترى بالمال وهو ما يؤكّد عدم صدقها، فكأنّ الإنسانية قد غابت عن هؤلاء الغرباء بالنّسبة إليه، والذين صنعوا منه غريبا أكثر ممّا كان عليه.

والملاحظ أنّ نظرة السيّاب للواقع لم تكن نظرة متفرّدة، بل كانت رؤيا شاملة تجعله يلمّ شتات ما تبعثر، ويؤلّف بين ما تفرّق، مبصرا المحور الأساسي لأزمة الإنسان في مجتمعه، أي أزمة الاغتراب التي تجعل الذات تنفصل عن ذاتها وعن الآخرين، فتحدث القطيعة والانفصال.

من هنا فإنّ تجربته وإن كانت تجربة الذّات المتفرّدة، خاصة في مجال الشّعر الغنائي، إلاّ أنّ الذات هنا ليست هي الذات المريضة المنسلخة عن واقعها العام، بل هي الذات الملتحمة بضمير الجماعة وهذا ما نحسّه في القصيدة إذ تعبّر بحق عن إنسان العصر الحديث المغترب.

فكلّ هذه الألفاظ: عيون أجنبية، احتقار، انتهار، ازورار، خطية، الإشفاق، تبرز تيمة الاغتراب والمنفى بكلّ ما تحمله من دلالات الألم والحزن والأسى.

كما يستعمل الشّاعر ألفاظ: يبين لا يبين، شك في يقين، الحجاب، عتمات نفسي، ضباب، واحسرتاه.

"وأزيح بالثّؤباء بقايا من نعاسي كالحجاب

من الحرير، يشفّ عمّا لا يبين وما يبين

عمّا نسيت وكدت لا أنسى، وشك في يقين

ويضيء لي وأنا أمدّ يدي لألبس من ثيابي

ما كنت أبحث عنه في عتمات نفسي من جواب

لم يملأ الفرح الخفي شعاب نفسي كالضّباب؟ (بدر شاكر السيّاب، ص323)

وهي ألفاظ دالة على الضّياع والتّيه والاضطراب واللّبس والحزن وعدم الاستقرار والتغييب، وهو ما يبرز تيمة الاغتراب والمنفى.

إنّ السيّاب يخاطب النّقود في مقطع من قصيدته قائلا:

"فلتنطقي يا أنت يا قطرات يا دم يا نقود

ما زلت أحسب يا نقود أعدّكنّ وأستزيد

مازلت أنقص يا نقود بكنّ من مدد اغترابي

مازلت أوقد بالتماعتكنّ نافذتي وبابي

في الضفّة الأخرى هناك فحدّثيني يا نقود

متى أعود متى أعود (بدر شاكر السيّاب، ص322)

يبدو السيّاب في هذا المقطع محبا للمال والنّقود ولكنّ حبه لها يخفي سببا واحدا ووحيدا هو كونه يعلم أنّه لا يستطيع العودة إلى وطنه العراق دون توفّرها، وهي هنا تمثّل معادلا موضوعيا للعراق، فهي العائق أمام وصوله إلى وطنه إذ نجده يقول أيضا:

"واحسرتاه فلن أعود إلى العراق

وهل يعود

من كان تعوزه النّقود وكيف تدّخر النقود (بدر شاكر السيّاب، ص323)

نجد إذا أنّ تيمة الاغتراب قد تشعّبت على أكثر من اتّجاه في بواطن القصيدة حضورا مباشرا، وغير مباشر، وهذا ما تحدّث عنه ريشار حين ذكر أنّ "قيمة الموضوع تتحدّد من خلال إلحاحيته وقدرته على التمفصل (محمد عزام، 1998: ص47)، وإذا كانت الإلحاحية تعني التيمة المهيمنة، فإن التمفصل يشير إلى تفرّع الموضوعات التي تختلف فيما بينها (العراق، الحبيبة، الأم، الظّلام، النقود، الولادة، الفقر، الحلم) ولكنّها تلتقي جميعها عند الموضوع الرّئيس وهو الاغتراب بسبب عدم تحقّقها والوصول إليها، لتُحقّق بذلك الائتلاف بعد الاختلاف.

خاتمة:

أخيرا وتأسيسا على ما سبق يمكن القول أنّ:

- المنهج الموضوعاتي يسمح بمقاربة النّصوص من خلال توفير عناصر إجرائية تطبيقية تساعد على تحديد وتتبع التيمة المهيمنة في النص ومن هذه العناصر ما وظّفناه من: حرّية المدخل، التكرار الاحصائي والعنونة.
- توصّلت دراستنا إلى أنّ التيمة المهيمنة في قصيدة غريب على الخليج هي تيمة الاغتراب.
- الاغتراب هو شعور بعدم الانسجام بين الذّات والآخر، هذا الآخر الذي يختلف فهمه من أديب إلى آخر ويتوحّد التعبير عنه، التعبير الخلّاق بالكلمة المشحونة.
- يمثّل العنوان واجهة النّصوص الأدبية، والمفتاح الأوّل للولوج إلى عوالمها لتفكيك عناصرها الدّالة، بحثا عن التيمة المهيمنة، الاغتراب التي ظهرت في العنوان وتأكّدت عبر أسطر القصيدة.
- بدر شاكر السيّاب لم يكن يكتب عن غربته ليرتقي بها، أو ليكون محط جلب للأنظار، بقدر ما كانت صادرة عن معاناة وتجربة مستوحاة من نفس محطّمة ومنهارة، فبدا وكأنّه في غيبوبة تامة يسعى في هذه الدّنيا بحثا عن نفسه فلا يجدها، فغنّاها بألحان شجية بها نبرة الأسى، وتهتف باسم العراق.

5. قائمة المراجع:

المؤلفات العربية:

1. اعتدال عثمان، (1998)، إضاءة النص، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر.
2. السّويدي فاطمة حميد، (1997)، الاغتراب في الشّعر الأموي، مكتبة مدبولي، مصر.
3. السياب بدر شاكر، (1997)، ديوان أنشودة المطر، دار العودة، بيروت.
4. طه وادي، (2000)، جماليات القصيدة المعاصرة، الشركة المصرية العالمية للنّشر–لونجمان، مصر.

5. عبد الكريم حسن، (1983)، الموضوعية البنيوية في شعر السيّاب، المؤسسة الجامعية، بيروت.
6. عزام محمد، (1998)، وجوه الماس (البنيات الجذرية في أدب على عقلة عرسان) دراسة، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق.
7. علّوش سعيد، (1989)، النقد الموضوعاتي، شركة بابل للطّباعة والنّشر والتّوزيع، الرّباط، المغرب.
8. الفيّومي محمّد إبراهيم،(1988)، ابن باجة وفلسفة الاغتراب، دار الجيل، بيروت، لبنان.
9. يقطين سعيد، (ب.س) القراءة والتجربة، منشورات دار الثّقافة، الدار البيضاء، المغرب، ط1.

المؤلفات الأجنبية:

10. Jean pierre Richard, 1961, L'univers Imaginaire de Mallarmé, ED du seuil, paris
11. Jean Pierre Richard, 1954-1970, littérature et sensation, Introduction de George poulet, seuil, paris

المقالات:

1. حليفي شعيب، (1992)، النص الموازي للرّواية: استراتيجية العنوان، مجلة الكرمل، 46، 82-102.